

تعميق الثقافات ورفد المعارف : ترجمة تراث المسرح والفنون أنموذجاً

هيثم الناهي⁽¹⁾

مقدّمة

مرت المنظمة العربية للترجمة بمرحلتين، الأولى : التأسيسية منذ 21 أيلول/ سبتمبر 1999 ولغاية نهاية عام 2012م، وفي هذه المرحلة كانت تفخر المنظمة بإصدارها مئة وثلاثة وعشرين كتاباً، وهو بالفعل عمل لا بأس به ولا لبس فيه، ولو أن جُلها كان من الإنجليزية والفرنسية إلى العربية ولكن حين نرى أن الزخم المالي الكبير الذي كانت تنعم به المنظمة والرعاية القصوى لها - لكونها كانت الأولى والسابقة في رفد المجتمع العربي بالكتب المترجمة - نجدها لم تتمكن من إنجاز الكثير ولكونها راوحت بلغتين ولم تنتج إلا في مجالات معدودة لا ضير ولا نفع لها أمام هذا الكم الكبير من العلوم الذي بدأ العالم العربي يتوجه نحوه من أجل التنمية والتطور. فعلى سبيل المثال إسبانيا تترجم أضعاف مضاعفة مما تترجمه جميع الدول العربية مجتمعة، وهو أمر يجعلنا نبحث عن الأسباب والمسببات. خصوصاً وأن ترجماتهم من عدة لغات متعددة لا تتجاوز الاثني والعشرين لغة، وفي معظم الاختصاصات التي تحتاجها الدولة. أما المنظمة في هذه الرحلة الكئيبة فقد اختصرت ترجماتها على الفلسفة والألسنية، إذا ما عزلنا ثلاثين كتاباً أصدرتهم مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في مجالات العلوم البحتة.

على أية حال، تركت الإدارة القديمة في نهاية عام 2012م هموماً كبيرة لدى المنظمة وديوناً متراكمة وعليه، عزمنا عند تولينا ادارة المنظمة على خلقها من جديد من دون التوقف في مجال معين أو لغة معينة. أصدرت المنظمة العربية للترجمة خلال رحلتها منذ

⁽¹⁾ Organisation Arabe de la Traduction, Liban.

عام 2013م ولغاية نهاية عام 2017م مئة وتسعة عشر كتاباً من الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية وأدخلت السريانية وتطمح للترجمة من الصينية والروسية والهندية خلال رحلتها القادمة. وكانت مجالاتها متعددة. فبالإضافة إلى الألسنية والفلسفة، ترجمت المنظمة من اللغات في التخصص الاقتصادي والاجتماعي والمعجمي والنفسي والأدبي والروائي والإعلامي والمسرحي، إضافة إلى ستة عشر مجالاً علمياً بدءاً من الرياضيات ومروراً بالفضاء والمواد الخضراء. بالطبع أخذت على عاتقها تسديد الديون المتراكمة والبدء بقوة، مما أجهضها مالياً في عامي 2018م و2019م أنجزت 28 كتاباً ولم تتمكن من طباعة إلا أربعة كتب لضعف السيولة المالية وانشغالها بتسديد الديون.

في هذه الدراسة سنخوض في ثلاثة مجالات، الأول: في كيفية تمكن المنظمة العربية من رفد المجتمع العربي ومكتبته بالثقافات وتنميتها وتطوير اللغة العربية من خلال الترجمة. وأما المجال الثاني فسنخصصه للترجمات الأدبية ودورها في رفع المستوى البحثي والتنموي، ونخصّ بذلك كتاب دليل جامعة أكسفورد في اللسانيات الحاسوبية المترجم عن الإنكليزية. ولعل المجال الثالث سيأخذ منا حيزاً أوسع؛ لأنه يخص المؤتمر وهو سيكون بخصوص كتاب معجم المسرح المترجم عن الفرنسية ويعتبر الأول في المكتبات العربية لضخامة وأهمية العمل في هذا المجال، وسبب وضعية هذا الاختصاص عربياً.

مفاعيل المنظمة في رفد الثقافات

لم تكن الثقافة ونقلها من لغة إلى أخرى معناً سردياً ينتهي الفرضية فيه بعد الترجمة من لغة إلى لغة، بل لا بد من النظر إلى هذا المفهوم من بعده الثقافي والتنموي الذي لا بد لأي منطلق في الحياة أن يبدأ منه. ولعل الشواهد التاريخية كثيرة في فعل الترجمة ورفد الحياة الفكرية بما هو جديد من العلوم بشتى نواحيها من الأمم الأخرى والعكس لأي لغة صحيح. ففعل الترجمة برفعه قيود نقل الفكر يغني اللغة ويجعل منها أداة متطورة يمكن من خلالها تنمية المجتمع بما هو جديد. فالعديد ممن هم في واقع الحال يترجمون دون هدف لا يهمهم من الترجمة فعلها المعرفي بل يسود عليهم الفعل الأداتي الذي ليس له مدلول، فيترجم النص وكأنه ينقل كلمة بكلمة ولو كان النص مقروءاً. ولكن الحقيقة لا تعني نقل الكلام بقدر ما هي ضرورة نقل المعارف وتطويرها ومن ثم استفهامها وفهمها كي يعطينا هذا الفعل إنتاج علم جديد يصب في داخل التطور الذاتي للمجتمع والفرد.

مما تقدم أعلاه سعت المنظمة العربية للترجمة في سنواتها الأخيرة إلى رسم ملامح يمكن من خلالها إفادة المجتمع والمهتمين بالترجمة والاختصاصات الأخرى. فحين نقول إن المنظمة العربية للترجمة قد أثرت في الثقافة العربية لم يكن كلاماً سائياً دون مدلولات. وسنخوض بصورة عمومية حول استجلاب اللغة العربية القاموسية ووضعها في موقع استخدام بعد أن أكل الدهر على بعضها وشرب. ناهيك أن الأسلوب التنموي المعرفي الذي نقصده في هذه السطور هو نابع من ذات الأشياء. فعلى سبيل المثال أقدمت المنظمة العربية للترجمة على ترجمة كتاب الاقتصاد وتحدي ظاهرة الاحتباس الحراري. وهنا حين يكون الحديث عن الاحتراز العالمي لا يعني أن المصطلح Global Warming هو احتباس حراري أو احتراز عالمي بقدر ما أنها فتحت أبواباً لعلم جديد له علاقة بالبيئة والكيمياء والغازات ومضارها على الكائن الحي والنباتات وغيرها من المتعلقات. إنها دلالة مدلول لكلمة تحوي في داخلها بحوثاً استثنائية يمكن لأي معهد مهتم بما يحيط بالإنسان أن يفتح أبواب تنمية وصيانة وبناء. ولو أردنا أن نتطرق أكثر في فعل أداة الترجمة سنجد أنفسنا غصنا أكثر حتى نصل لتشريع القوانين الخاصة بهذا المفهوم ومؤثراته.

ليتخيل أحدنا أننا لم نترجم ولم يترجم غيرنا وأغلقنا أبواب التواصل وتركنا العقل التواصلية ورجعنا لتفعيل العقل الأدوات، فإننا سنجد أنفسنا قد تركنا جانباً مهماً من التطور والبناء والتنمية، ليس على أساس بناء المجتمع فحسب بل هذا قد يكون في إطار المحافظة على البيئة والإنسان والحفاظ على موارد البلد. هو مثال من أمثلة عديدة تمكّنت المنظمة العربية للترجمة من هذه المفردات المتعلقة بعلم منقول أن تزرع عناوين بحثية واهتمامات بالغة الأهمية في جانب من جوانب العلوم. نحن لا نود أن يكون الفعل الدلالي محصوراً في معنى الكلمة بل لا بد أن يكون مناصباً يسبق الفعل لتفعيل الدلالة وفق الشخوص الذاتية التي يعنىها المصطلح في ذوات محيطه من الارتباطات الأخرى التي تُعطي المفاهيم طاقة يمكنها وفق هذه الدلالة أن تتطور لتنتج ما هو أسى باستمرارية ثقافية فعلية.

لنُعطي مثلاً آخرأ هنا وهو كتاب الرمل والسيليكون: علمٌ غيرُ العالم (ماكون، 2013) - نركز على العلوم البحتة؛ لأننا سنتطرق للعلوم الإنسانية لاحقاً- فهو كتاب يطرق أبواباً لا أحد منا قد طرقها أو انتبه إليها رغم أن الرمل يشكل أكثر من نصف مساحات دولنا. هذا الكتاب لا بد لنا من أن نفوس في أعماق معارفه؛ لأنه فتح أمامنا أسلوباً يجعلنا حريصين على معرفة انكسار الأشعة السينية والبلورة وأنواعها سواء كانت أحادية أو متعددة وكيفية

معرفة بنيتها. وعرج أيضاً على التسبيك والأجسام الصلبة وما يمكن إنتاجه من الرمل ومكوناته من السيلكات المؤكسدة. لا أريد الإطالة في وصف الكتاب ومعانيه الاصطلاحية، بقدر ما أقول إنه فتح أبواباً علمية متعددة واختصاصات ذكية يمكننا من خلالها تطوير المعارف بعد تطوير الثقافات واستخدامها في محك حياتنا لزرع تنمية يحتاجها مجتمعنا. وهذه التنمية وتطورها في مثل هذه الكتب بالتأكيد ستؤدي معارفها في نهاية المطاف إلى إثراء المكتبة والبحث، ويمكن أن نسهم من خلاله في حركة التطور العالمي، ونغير المفاهيم التي تقول إن العرب لا يملكون شيئاً يترجم.

إنها حلقة لا يمكن فصلها ونتائج كل منها يصب في معطيات الأخرى. فالترجمة والعلوم والتنمية والثقافة وتطور المعارف ذوات صلة ببعضهم البعض، وما إن تطور أحدهما سيطور الآخر ويجعل هذا الكوكب رصيناً بالعلوم التي تصب في بنائه وحلقة تطوره. وبهذا نحن قصدنا كيف يمكن وكيف تمكنت المنظمة العربية للترجمة خلال رحلتها من رفد العلوم والمجتمع بثقافات معرفية تجعله بؤرة للتواصل الإيجابي وخلق علوم جديدة يمكن الاستفادة من دوافعها الأساسية لبناء المجتمع وتنميته وحصر العلوم في دائرة البحث والدراسات من دون وضعها في فلك الاختلافات والسلبيات. فهناك العديد من الكتب التي ترجمتها المنظمة العربية للترجمة كانت بواقعها إضافات وإطلاقات لها فعلها المؤثر في رسم ملامح مجتمع علمي لتواصلها مع العلوم والحضارات والثقافات القادمة من العوالم الأخرى.

الترجمات الأدبية ودورها في رفع المستوى البحثي والتنموي

رغم عمق اللغة العربية ومجالاتها الأدبية بكافة أبوابها المتعددة بما فيها البلاغة ومروراً بالشعر والمنطق اللغوي والوصف والرواية وغيرها من الأبواب التي تميز العربية عن غيرها، إلا أن عجلة التطور قد توقفت لقرون عديدة. ونحن هنا لا نقصد أن أبوابها قد اندثرت بقدر ما نقول إنها توقفت في التطور والبحث عن حالة غير تراتبية تجعل الباب الأدبي متشابهاً روتينياً. فعلى سبيل المثال ومع عصر النهضة الأوروبية ونبوغ البعض منهم في الرواية وبناء اللغة ومفرداتها، ظهرت قيمة جديدة في النظرية الثقافية هي النقدية. والنقدية هنا باب لم يكن مطروقاً من قبل الأدب العربي في العصور التي نبغ بها العرب، بل هو منقول من الحقبة الأدبية الأوروبية التي نضجت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. فقد تطورت الرواية وفعلها الأدبي، فعلى سبيل المثال في فرنسا بصورة منقطعة

النظير وكذلك في بريطانيا؛ إذ أصبحت أكاديمية أكثر من كونها عرفاً منهجياً يومياً يتعامل معه الأفراد. لذا ومن هذا المنطلق دأبت المنظمة العربية للترجمة ومن خلال لجنتها المعروفة باختيار الكتب لتُعطي هذه المكانة الأدبية المهنية دوراً في الترجمة، من أجل النهوض بالواقع الأدبي ومعرفة تجارب الآخرين في هذا المضمار.

رغم إصدار المنظمة العربية للترجمة العديد من الكتب الأدبية والنقدية مثل: الوعي والرواية (كريتيان، 2016) والصوتيات (فيسبار، 2013) وفلسفة اللغة (أورو، 2012) وغيرها من الكتب المهمة، إلا أن كتاب دليل جامعة أكسفورد في اللسانيات الحاسوبية بأجزائه الثلاثة الصادرة عن جامعة أكسفورد في بريطانيا، يعتبر ذا نكهة خاصة تختلف عن الكتب الأخرى. فهو وعيٌ جديدٌ لربط اللغة بالحاسوبيات، وهنا لا نقصد الحاسوبيات البرمجية العادية، بل نقصد تطويع الحاسوب للتعامل مع اللغة وبنيتها وكيفية التوافق العلاقية ما بين الحرف ولغة الكمبيوتر. نظرة فاحصة بسيطة للتاريخ تجعلنا نعرف كيف تطورت الأمم الأخرى حاسوبياً، فهم قبل الضلوع في هذا الفلك العلمي الكبير درسوا اللغة وبنيتها وحاولوا جعلها طيّعةً في البرمجة ومن ثم حوسبوها واستفادوا منها تربوياً وقاموسياً ومرادفاتياً، ناهيك عن أرشفتها ومعرفة النسخ والتناسخ في معاني الكلمات. أي: أن تطور التكنولوجيا لم يمنع علماء اللغة من الاستفادة في هذا المضمار.

إن منطلق اللغة والبحث في سبك الكلمات وفي قياس طاقتها الإبداعية يجعل من هذه العلوم تسدل الحبل في الضلوع في بناء مؤسسة علمية مبنية على الكم الهائل من الكلام الذي يمكن أن يستقي من جذوره والاستفادة منه في تطوير اللغة وتطوير التكنولوجيا. هذا الكتاب جمع في طياته علم الرياضيات والمنطق من جهة والحوسبة واللغة من جهة أخرى، وتمكّن من وصف صوتية الكلمة وكيفية إدخالها في ساحة برمجية مبنية على لغة الماكينة؛ إذ تمكّنها من تفتيت الكلام وإعادة بنائه بالصورة التي يراد منها وضع أطر جديدة. ولا نخال إن قلنا شيئاً ما غير معروف إذا ما تبادر إلى ذهننا أن تطور مثل هذه البرامج تربط بين اللغة والتكنولوجيا ستطرب علماء في العرب لبناء القارئ الإلكتروني وتطوير الترجمة الآلية من اللغة الأجنبية إلى العربية وبالعكس، إذا ما علمنا أننا مازلنا قيد التخلف في هذا المجال قياساً بما توصل إليه البعض في الترجمة الآلية وتقليل مساحة الفجوة فيما وصل إليه الآخرون من تطور علمي.

مرة أخرى هي الترجمة التي بفعلها يمكن التواصل ويمكن تحقيق المكاسب التي من خلالها يمكن بناء مجتمع فيه تنمية وفيه استفادة. إذن اللغة وتطويرها أيضاً وطوعية هذه اللغة في التعامل مع الحوسبة ستبني نهضة جديدة يمكن من خلالها الانفتاح تكنولوجياً في مجالات علمية أخرى سبقنا إليها الآخرون.

تجربة المنظمة في علوم المسرح وتطورها

النقلة النوعية التي أرادتھا المنظمة بعد عام 2012م هو الدخول في معترك بناء حزمة علمية للتواصل الحضاري مع الأمم المتحضرة حولنا. فالمسرح لم يكن متواتراً في الأدب العربي ولو كان بصورة مختلفة، إلا أنه حقق في العقود السبعة الماضية في أوروبا وبعض دول الشرق الأوروبي نقلة موضوعية، جعلت منه أدباً أكاديمياً مدروساً. أسهمت بعض المؤسسات في ترجمة المسرح الأوروبي أو المسرح العالمي على أقرب تشبيه، إلا أنه لم تقدم مؤسسة مذكورة على ترجمة أساسيات علوم المسرح، لذا بصورة أو أخرى لم ينجح المسرح في بلداننا إلا إماماً. فكاتب السيناريو المسرحي بالتأكيد يختلف عن كاتب القصة ووضعية أدائها. ولعل عناصر المسرح ووصفها وكيفية التعامل مع كل مُعطى له خصوصيته المختلفة من حالة إلى حالة أخرى، لذا لا تمتلك مسرح ناجح لا بد من معرفة هذه الخصوصيات وهذه العناصر الأساسية التي تجعل منه كائناً حياً.

إنه من المهم جداً أن يدرس موضوع المسرح بطريقة منهجية أكاديمية لتأسيس علم به يخرق هذا الجمود، لذلك لا بد من معرفة كيف ولماذا ونحو أي دلالة أُقيم المسرح؟ كل هذه الدلالات تكاد تكون مفقودة عربياً إذا لم تكن معدومة جداً. وللحيلولة دون النقل العشوائي وتطوير العلم لنخلق مسرحاً عربياً متلازماً مع الجوانب الأدبية يستوجب علينا الأخذ بعين الاعتبار كل هذه المفاهيم. وبصدد هذا السياق جمعت المنظمة العربية للترجمة منذ عام 2013م ولغاية 2014م كل المفردات التي تساعدنا في خوض هذا المضمار وتقديم شيء فعال للمتلقي والباحث العربي؛ فاسترشدت من خلال لجائها لقاموس المسرح لمؤلفه الفرنسي الأصل. ففي هذا القاموس الكبير بحجمه والغني بمعلوماته جمع كل حيثيات المسرح ولواظفه ومصطلحاته وأين ومتى بُنيت؛ إذ كان بعضها باللغة الفرنسية القديمة التي لا مرادفات لها في اللغة الفرنسية الحديثة، ولربما لا مقابل لها في اللغة العربية؛ لأن العرب أصلاً لم يكن لهم مسرحاً تمثيلاً بالمعنى الغربي الحالي.

هذه الإلمامة بخصوص قاموس المسرح وضعتنا في معتك الاسترشاد بمترجم محترف لغوياً ومتخصص في ذات الوقت، وهو ما جعل إصداره يتأخر بعض الشيء بعد أن تمكّنا من الاسترشاد بشخصية مسرحية أكاديمية تجد اللغة الفرنسية والعربية في ذات الوقت، مستعيناً بكل الأساتذة المحيطين به في الجامعة التي يدرس فيها علم المسرح. ومع هذا راجع القاموس أكثر من ثلاث شخصيات ليصل لنا بهذه الحلة الجميلة التي عكف الجميع فيها على رسم ملامح الكلام بما ويتوافق مع فعل المصطلح وكأنه صورة واقعية لما يجب أن يحدث على المسرح. بعض المصطلحات طال النقاش فيها أياماً لوضع التعريف المناسب لها، كي يكون علماً نافعاً. فالقاموس بلغته الصعبة والمعقدة ليس نقلاً من لغة إلى لغة أخرى بقدر ما كان بناء لحالة أكاديمية تؤسس لعلم جديد بحاجة إليه كعرب وباجة إلى تطبيقه بغية مراعاة ما يدور حولنا من علوم وأدوات كثيرة خفي معظمها عنا.

خاتمة

تلك هي الرحلة الحقيقية في رفد الثقافات وبناء معاييرها التي حرصت عليها المنظمة وأرادت من خلالها أن لا تكون الترجمة نقل كلام مقابل كلام، بقدر ما أرادت أن تكون واعية لما ترفد فيه المجتمع من علوم ضرورية. هذه العلوم يمكنها بما لا يقبل الشك أن تسهم في بناء مجتمع معرفي نام يمكنه أن يضيف إضافة لها تأثيرها في بناء الإنسان. ناهيك عن بعدها في التواصل مع الحضارات الأخرى والاستفادة من خبراتها في أي علم من العلوم تكون فيه هذه الأمة أو تلك نابغة عالية المكارم فيها. هي رحلة شاقة ولكنها ستترك أثراً له قيمته العلمية يسهل الطريق أمام البناء الذين لا بد من أن يكملوا المسيرة في مرحلة من مراحل الحياة كما بناها أبؤنا في المأمونية الأولى. لنطمح معاً بمأمونية ثانية لها بعدها الحضاري!

بيبليوغرافيا

- أورو، سيلفان (2012). فلسفة اللغة. المنظمة العربية للترجمة.
فيسبار، جاكلين (2013). الصوتيات. المنظمة العربية للترجمة.
كريتيان، جان لويس (2016). الوعي والرواية. المنظمة العربية للترجمة.
ماكوان، دنيس (2013). الرمل والسيليكون : علم غير العام. المنظمة العربية للترجمة.